

ملاحم من العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الإمام السنوسي

د/عبد القادر بن عزوز
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر

كشخصية السنوسي [832هـ - 895هـ / 1428م - 1489م] ⁽¹⁾ ارتبط بمجموعة من العوامل المساعدة على ذلك ليتفوق على أقرانه في عصره وأن يكون له السبق في القيادة المعرفية والإصلاحية في زمانه وتمتد قيادته معنويا ومعرفيا للوقت الحاضر، وإن هذه العوامل تنحصر في أمور شخصية ذاتية متعلقة بالسنوسي الإنسان وأخرى خارجة عن ذاته إلا أنها ترسم ملاحم شخصيته لقوة تأثيرها في الفرد والتي نجملها في الآتي:

أ- العوامل الذاتية: انطوت شخصية الإمام السنوسي على جملة من العوامل الذاتية مكنته من البروز والتصدر للقيادة عندما أحسن استغلالها وتوظيفها على الوجه المشروع ومنها نذر على سبيل التمثيل:

تعتبر مدينة تلمسان حاضرة من حواضر التاريخ الجزائري، إذ عرفت مرور الكثير من الأنظمة السياسية والتي شكلت التركيبة الحضارية للمدينة وما جاورها على المستوى المعرفي والمدني والسياسي والاجتماعي... ولعل أبرز هذه السمات الحضارية أنها تعتبر إحدى المراكز الحضارية الإنسانية التي ساهمت بأعمال مفكرتها وساستها في البناء الحضاري الإسلامي الإنساني في شقه المعنوي والمادي.

وإن من أبرز علماء مدينة تلمسان الشيخ محمد بن يوسف السنوسي - رحمه الله تعالى - والذي يعتبر حلقة من حلقات التسلسل المعرفي للمدينة ثم الجزائر، فباقي دول المغرب العربي وإن بروز شخصية

1- الإرادة القوية والرغبة في التعلم: لقد

ظهرت معالم الشخصية العلمية القوية للإمام السنوسي منذ بدايته الأولى في تلقي العلم على يد شيوخه ولذا ينقل لنا المترجمون له علامات نبوغه وتفوقه في التأليف على أقرانه ممن عاصره وهو ابن تسع عشرة سنة ، إذ ينقل عنه أنه ألف في العقائد كتابا جعل شيخه الحسن أركان يخفيه عن الناس خشية الحسد وما ينتج عنه من وشاية وتشهير قبل وصد الناس عنه مما يصعب عليه مهمة الإصلاح التي يؤملها فيه شيخه⁽²⁾...

2- الشعور بالمسؤولية الدينية نحو

الأمة: يعتبر الدين باعثا مهما يدفع الإنسان نحو تحقيق ذاته على المستوى النفسي والانتماء الاجتماعي والدين الإسلامي يبعث في الناس مقصد معنى الخيرية: كنتم خير أمة.. "والإمام السنوسي بحكم انتمائه لطلبة العلم والعلماء فإنه يعي مسؤوليته الفردية والجماعية لمعنى الخيرية المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بعبارة أخرى مسؤوليته الدينية والدينية عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية... وأنه مأمور بإصلاحها بما يقدر عليه وفق الترتيب الثلاثي من التغيير باليد ، واللسان

والإنكار القلبي كيف لا وهو تلميذ الشيخ الثعالبي والذي أثر فيه بطريقته ومنهجه في التعليم والسلوك الإيجابي وبكثرة تأليفه في شتى العلوم ومشاركته للناس حياتهم اليومية وهمومهم وتطلعاتهم⁽³⁾ مما ترك بصمات ظاهرة للشيخ على التلميذ ، إذ من مقاصد الشريعة الاقتداء بالصالحين والانتهاز من علمهم وعملهم فمصاحبة الرجل العالم الصالح تكسب المصاحب جملة من المصالح الدينية والدينية والتي أحسن الإمام السنوسي اختيارها .

وإن هذا الباعث الديني حرك في نفس الإمام السنوسي المسؤولية عن نقد وإصلاح الأوضاع الاجتماعية بالطرق العلمية وخاصة أنه رأى عند بعض الناس زهدا مزيفا وأباطيل تتنافى مع مقتضيات الشريعة السمحة⁽⁴⁾ ولهذا نجده يركز في البداية على إصلاح العقائد لما فيها من تأثير على باقي شؤون الإنسان فمن صلحت عقيدته صلحت أعماله فيؤلف مقدماته في علم التوحيد⁽⁵⁾ والتي حرص على شرحها بنفسه تبياناً لمعانيها وتحقيقاً للاستفادة منها لجمهور الناس وهذا يدل على أعلميته وسلامة منهجه الإصلاحية والتربوي ، ولقد نقل عنه قوله في هذا

في مجالات من العلوم شتى والتي كانت تدرس في جامعة القرويين⁽¹⁰⁾ على غرار نظام الرحلة في طلب العلم في المنهج العلمي عند علماء الإسلام مما ساعده على اكتساب مهارات وعلوم أخرى أفاد بها واستفاد على حد سواء.

3- حسن التعامل مع أفراد المجتمع:

إن في حسن التعامل مع الآخرين بداية الدعوة الناجحة كيف والسنوسي يقتفي أثر سلف الأمة بالاقتداء بالسيرة النبوية وطرق تعامله ﷺ مع جمهور الناس كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم رئيسهم ومروءوسهم... وإن في فهم هذا الجانب من حياة النبي الكريم ﷺ مقدمة لتعلم مهارات فن التعامل مع الناس والذي كان الإمام السنوسي يحكم فهمه لمقاصد الشريعة يتحلى به ، مما أهله لمرتبة الريادة والإمامة للناس في زمانه ومن بعده .

ويصفه تلميذه الماللي التلمساني بقوله: "...مع تواضع وحسن خلق ورقة قلب رحيما متبسما في وجه من لقيه مع إقبال وحسن كلام يتزاحم الأطفال على تقبيل أطرافه لنا هينا حتى في مشيه... يوقر الكبير ويقف مع الصغير ويتواضع

الشأن: "ليس علم من العلوم الظاهرة يورث معرفته تعالى ومراقبته إلا علم التوحيد، وبه يفتح له في فهم العلوم كلها، وعلى قدر معرفته به يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه.."⁽⁶⁾.

وكذا اهتمامه بالسنة المطهرة كشرحه لصحيح مسلم لما في فهم السنة على اختلاف رتبها القولية والفعلية والتقريرية والجبلية من الفهم السليم للشريعة والانفتاح على العبادة الصحيحة وكذا فهم المسؤولية الحضارية للفرد على هذه الأرض ومنها جاء كتابه "مكمل في كمال الإكمال"⁽⁷⁾ وكذا اهتمامه بشرح صحيح البخاري⁽⁸⁾.

وإن توسع الإمام السنوسي في مسائل المنطق والرياضيات والحساب والفرائض⁽⁹⁾ ساعده على توسيع قدراته العقلية ومنه المعرفة وتشكيل لقوته العقلية الاستدلالية والحجاجية والتي ضمنها مؤلفاته فاختلقت في نظلمها ومنهجها عن غيرها من الكتب .

وإن هذه الشخصية المتوازنة والطموحة دفعته إلى السفر إلى مدينة فاس المغربية لمجالسة العلماء ويأخذ منهم

للضعفاء .. " (11).

وينقل عنه أنه كان "لا يفارق الرجل حتى ينصرف" (12).

العوامل الخارجية تأثيراً مباشراً أو غير مباشر في تكوين شخصية الإمام السنوسي نذكر منها إجمالاً:

1- النسب العلمي: ينتسب الإمام السنوسي إلى عائلة علم وصلاح فوالده الأستاذ الزاهد المحقق المقرئ أبو يعقوب يوسف السنوسي⁽¹⁵⁾ كان يرتاد مجلسه طلبة العلم والعلماء على حد سواء ومن هنا كان السنوسي ينظر عن كتب ما يدور فيها من مناقشات وحوارات فقهية وعقدية في مجلس والده مما يحفزه نحو تحقيق ذاته في هذا الشق من حياته ليكون امتداداً للصيرورة التاريخية العلمية لعائلة السنوسي .

2- قوة المعلم: إن من وظائف المعلم أو المربي أن يلاحظ الفروق التي يتميز بها بعض الطلبة عن غيرهم ليعتني بهم ويأخذ بأيديهم ويسير مواهبهم وإن الشيخ السنوسي تعلم على جملة من الأساتذة في تلمسان ووهران ...⁽¹⁶⁾ والذين صقلوا موهبته وأثروا فيه إيجاباً في شتى العلوم التي درسها بين أيديهم ومنهم الشيخ الإمام عبد الرحمان الثعالبي والشيخ نصر الزواوي والشيخ محمد بن تومرت

كما أكسبه عفافه فيما في أيدي الناس حكماً ومحكومين قبولاً عندهم رغم أنه كان يسعى في حوائج أفراد المجتمع ويكتب المسؤولين فيها بهذه الأخلاق والشخصية الربانية المتوازنة كسب قلوب الناس فسلموا له بالإمامة⁽¹³⁾.

4- قوة الحجاج والبيان: إن صفاء السريرة والإيمان بالفكرة أو القضية التي يتبناها الفرد تولد فيه قوة البيان والاستدلال في إقناع الآخر وجلبه لفكرته وإن الإمام السنوسي تمكن من هذا الجانب الحظ الوفير مما جعله يخاطب الناس كلاً على حسب قدراته العقلية وفهمه مما جعل له القبول عندهم ويقول عنه تلميذه الماللي التلمساني: "وأما وعظه فكان يقرع الأسماع وتقشعر منه الجلود وكل من حضر يقول معي يتكلم؟ أو إياي يعني؟ جلّه في الخوف والمراقبة وأحوال الآخرة لا يخلو مجلسه منه مع حلاوة له لا توجد في كلام غيره يعظ كل أحد بحسب حاله" (14).

ب- العوامل الخارجية: لقد كان لبعض

أحدها: أن الغالب فيمن تقدم إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى .

والثاني: إن نشاط النفوس للخير والافتداء بذكر محاسن المعاصرين لها أو من قرب من المعاصرين أكثر من نشاطها بذكر محاسن من بعد زمانه لأن منافسة المعاصر لمعاصره معلومة .

وأيضاً النفوس في هذه الأزمنة المتأخرة قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح ورياضة النفس عنها أن الولاية قد طوي بساطها ، فترى أن الاجتهاد لا فائدة فيه ، فإذا عرفت أن بعض المعاصرين أو من قرب من المعاصرين قد فتح له بابها قوي رجاؤها حينئذ في الفتح ونشطت واجتهدت "(18) .

2- العامل السياسي: يعتبر العامل السياسي أحد أبرز العوامل التي تبرز حقيقة الإنسان وتدفعه إلى تحقيق ذاته وخاصة إذا انتشر الأمن والاستقرار السياسي لبيدع هذا الشخص أو ذاك ، وكما يعتبر عدم الاستقرار في الدولة باعثاً يحرك في الفرد نية الإصلاح العام والخاص وخاصة إن كان هذا الشخص طرفاً في المعادلة السياسية،

الصنهاجي⁽¹⁷⁾... وغيرهم فهم الذين جعلوا من السنوسي جامعاً بين السلوك السني الإيجابي المبني على صحة العقيدة والعمل بفروع الشريعة تحكيماً في الأقوال والتصرفات بالإضافة إلى صقله بالمنهج المنطقي والرياضي ليكون له عقل متشكل بالمنهجية المنطقية لينتقد نقداً مبنياً على أسس علمية متينة يسلم بها الخصم فيمكنه من أن يشرع في الإصلاح على كل المستويات فيثمر الإيجابيات ويدفع السلبيات .

وإن ثمرة هؤلاء المشايخ الذين علموا الإمام السنوسي ظهرت في قوة عبارته وحجته وكثرة تأليفه... ولهذا ينقل عن الإمام السنوسي ما في مضمونه من أهمية الاعتناء بالصالحين أو المربين المعاصرين أو من قرب منهم من حيث الزمن لقوة تأثيرهم في النفوس ولقرب الاقتداء بهم من خلال سلوكهم المشاهد والذي يلاحظه التلميذ أو السالك أو المتعلم يوماً بيوم وساعة بساعة في تصرفاته المستقيمة والمتوازنة إذ يقول: "وليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين وخصوصاً من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم وذلك لأوجه:

(19) وبين الدولة الموحدية والتي خالفت ما كانت عليه الدولة المرابطية في مسائل التوحيد وغير ذلك من المسائل ؟ (20)

ولقد شهدت الدولة الزيانية شيئا من الاستقرار السياسي في عهد السنوسي مع فترات من الاستقرار بسبب ما كان يقع من مناقشات بين بقايا الموالين للدولة الموحدية من جهة الغرب والإمارات المجاورة لها كالدولة الحفصية من جهة الشرق ولبعض التمردات الداخلية القبلية والتي كانت تنزع للسلطة لحساب هذا الشخص من الدولة أو ذاك .. (21)

إلا إن الملاحظ أن هذه العوامل السياسية والصراعات على السلطة في الداخل والخارج لم يمنع من انتشار العلم وازدهار مجالسه والتوسع في المؤسسات الوقفية التي أوقفت على المؤسسات العلمية وطلبتها بمدينة تلمسان عبر العصور المختلفة مما نشط الحركة العلمية ببعض المدارس المتواجدة بها كالمدرسة التاشفينية، وانتشار المناظرات العلمية في مجالس الأمراء وتجديد مدارس التعليم وبناء المساجد والزوايا وانتشار المطالعة بانتشار المكتبات ومواضيع التأليف

أي أن يكون في جهة المعارضة لما تقوم به هذه السلطة أو تلك من ممارسات تتنافى وحقيقة وحدة الأمة وتحقيق مقاصدها ، كانتشار الظلم، والرشوة وعدم الاهتمام لأحوال أفراد المجتمع ...

وإن المتتبع لمظاهر الحياة السياسية لمدينة تلمسان في القرن 09 هـ وهي الفترة الزمانية التي عاش فيها الإمام السنوسي والإنسان ابن بيته تأثرا وتأثيرا ، أنها مرت بالولاء للدولة المرابطية، فالموحدية، لتستقل بإمارة نفسها بعد موقعة العقاب وسقوط الدولة الموحدية سنة 603 هـ - 1112 م في شكل الدولة الزيانية على يد يغمراسن بن زيان بن ثابت من بني عبد الواد لتنتهي بدخول الأتراك للجزائر 962 هـ - 1554 م، وإن هذا التنوع في الولاء السياسي له تأثيراته على تشكيل التركيبة النفسية والاجتماعية على مستوى الفرد والجماعة، إذ يعتبر ميراثا معرفيا يسلكه الناس وإن لم يشعروا به إما قبولاً أو رفضاً كيف لا؟ والدولتان تختلفان على مستوى التصورات والرؤى في بناء الأمة عقائدياً وفقها فالمرابطون على مذهب المدرسة الفقهية المالكية وتصورها لنظام الكون والحياة وأصولها الاجتهادية

تزكية نفسه أولاً بالتوجه إلى السلوك أو التصوف والعمل على تحقيق معنى التوحيد الخالص لله عز وجل ليتوجه بعد ذلك إلى الإصلاح بعد أن يتم له إصلاح نفسه وإن هذا الأمر لم يكن عاملاً سلبياً لينطوي الشيخ ويهرب من واقعه إلى واقع المثل وينكفي على نفسه انكفاء سلبياً؛ وإنما توجه إلى الزهد ليعود إلى إصلاح الخلق بعد إصلاح نفسه ولأنها مهمة العلماء والمصلحين عبر التاريخ ودليل ذلك كثرة مؤلفاته في العقيدة والفقه والحديث والتفسير والتصوف والطب والحساب والمنطق... (23).

2- العامل الاجتماعي: عرفت الدولة الزيانية تركيبة اجتماعية لم تكن تغاير غيرها من الدول المجاورة لها عموماً فتكونت من طبقة الحكام والوزراء وما يتبعهم من مشرفين على الدوائر الحكومية، وطبقة العلماء والجنود والتجار والمزارعين والحرفيين (24) وإن التقدم لهذه الطبقة أو تلك أمر نسبي على حسب الحالة السياسية ومنهاج الحكم.

وكان للوضع الاجتماعي تأثير في تكوين شخصية الإمام السنوسي بالتوجه

من تفسير وحديث ومنطق ورياضيات وأصول الفقه وتصوف وطب... (22) فإن هذه العوامل ساعدت على تسهيل طلب العلم وأثرت هذه السياسة على التكوين العلمي للطلبة وانفتاحهم على جملة من العلوم كالمنطق والفلسفة والرياضيات والنوازل الفقهية... فشكلت عقولهم بطريقة خاصة ظهرت ثمرتها في تأليفهم بعد ذلك كحالة منهج التأليف عند الإمام السنوسي فنجده يؤلف في الفقه كما يؤلف في التصوف والمنطق...

وإن هذا العامل السياسي من الحرية تولد عنه بروز روح وثقافة المناقشات والحوارات العلمية وكثرة التأليف والذي كان يستفيد منه طلبة العلم ومنهم الإمام السنوسي بما يصل إلى أسماعهم فيتأثرون به ويساعدتهم في تشكيل الرؤى العلمية في هذا المجال أو ذاك.

إن هذه العوامل السياسية شكلت شخصية الإمام السنوسي وكانت عاملاً مساعداً لتكوين شخصيته العلمية الناقدة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتي كان يشوبها جانب من النقص في نظر الشيخ السنوسي وتوجه إلى انتقادها بطريقة الخاصة بالتوجه إلى

إلا دلالة واضحة على أن في غيابهما غياب وتدهور للحالة العلمية وعزوف أفراد المجتمع عن مجالس العلم لانشغالهم بأساسيات الحياة الأساسية ولعل من أبرز العوامل المساعدة للإمام السنوسي في تحصيله للعلم وبلوغه هذه الرتبة من الإمامة أن مدينة تلمسان وما جاورها كانت تعرف استقراراً في هذا المجال عموماً على اختلاف الحكومات المتعاقبة عليها فانتشرت المزارع والصناعات المختلفة وتوسعت التجارة⁽²⁶⁾ ومنه ظهر توسع في مجال الخدمات على كل المستويات والعلمية منها خاصة.

طلب العلم ومجالسة العلماء لما اكتسبه العلماء من مكانة ووقار في نفوس الناس بمدينة تلمسان في القرن 9 هـ⁽²⁵⁾ ومنه فإن العامل الاجتماعي من حصول التقدير الاجتماعي للعلم والعلماء وإن لم يظهره العلماء في كتبهم له تأثير إيجابي يكون مركزاً في الضمير الفردي والجماعي لأفراد المجتمع.

3- العامل الاقتصادي: إن في توفير الحاجات الأساسية من طعام وشراب وأسباب الرعاية الصحية والاستقرار للأسعار في الأسواق تأثيراً كبيراً على نمو الحركة الثقافية والفكرية، وما امتنان الله عز وجل في القرآن على قريش بنعمتي الأمن بشقيه الغذائي والنفسي ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قريش: ٤

الهوامش

- (1) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن أبي مريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط-8605:244.
- (2) تاريخ الجزائر الثقافي، د/أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1/1998م:95.
- (3) المصدر نفسه:1/96-97.

- (4) غاية المرام في شرح مقدمة الإمام لابن زكري، تحقيق أ/محمد مشنان، ماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص أصول الفقه، كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر، نوقشت سنة 1998م: ص 104.
- (5) البستان: ص 246. وتاريخ الجزائر الثقافي: 1/97-96.
- (6) البستان: 239.
- (7) انظر طبعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
- (8) البستان: 246. و أضاء على المحدثين الجزائريين الذين شرحوا صحيح الإمام البخاري، د/ مصطفى حميداتو، جامعة باتنة، www.alsunnah.com يوم 07/07/11 في الساعة 11 سا و 15 د.
- (9) البستان - 238-246.
- (10) www.al-majalis.com يوم 07/07/11 في الساعة 11 سا و 30 د.
- (11) البستان: ص 240.
- (12) البستان: ص 243.
- (13) البستان: ص 240-241.
- (14) البستان: 240.
- (15) البستان: ص 238.
- (16) البستان: ص 338.
- (17) البستان: ص 238. وتلمسان عبر العصور: ص 22-223.
- (18) البستان: ص 6.
- (19) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي، د/علي محمد الصلابي دار المعرفة، بيروت ط 1426/01 هـ - 2005 م: ص 51-57 بتصرف.
- (20) تاريخ الجزائر العام، عبدالرحمان الجيلالي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1995/01 م: 3/2. وتاريخ دولتي المرابطين والموحدين: 284. وتلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1984 م: ص 70.
- (21) غاية المرام: ص 84-85.
- (22) تاريخ الجزائر العام: 2/249-250. و تاريخ الجزائر الثقافي: 1/113 و 1/265-266. و 1/285-286. وغاية المرام: ص 95-124 بتصرف. وتلمسان عبر العصور: 221.

(23) تاريخ الجزائر الثقافي: 96.3/1 و 113-114. وموقع المكتبة الوطنية الجزائرية ،
www.biblionat.dz يوم 2007/07/11 في الساعة 11 سا .

(24) غاية المرام: ص 101.

(25) المرجع نفسه: ص 104.

(26) المرجع نفسه: ص 99.

